الحروب الابادية وتحليل لقصة «أسير القفقاس»:

الحروب القديمة كانت «رياضة» ومع الغربيين تحولت اسلوب حياة.. وصارت قاعدة لا استثناء

تولستوي صور ابناء القوقازيين وحوشاً.. تصرفاتهم حيوانية.. وبذلك قدم مبررا لقتلهم وابادتهم

د. ثائر دوري*

■ أصدرت دار قدمس للنشر كتاباً قيماً اسمه «الطرد والابادة» وهو من تأليف جستن مكارثي وقام بترجمته الى العربية فريد الغزي. يتناول هذا الكتاب موضوع الابادة الذي تعرض لها المسلمون العثمانيون خلال قرن من الزمان من 1820 ـ 1920 في كل من البلقان والقوقاز وشرق الأناضول. وأهمية هذا الكتاب أنه يتناول موضوعاً تم التعتيم عليه باتفاق ضمني بين كل الأطراف بما فيهم أبناء الضحايا. فبينما جرى التركيز على عذابات الطرف الآخر سواء في البلقان أم في شرق الأناضول أم في القوقاز جرى تجاهل مصير المسلمين في تلك المناطق. يورد الكاتب تفاصيل تاريخية دقيقة عما تعرض له العثمانيون المسلمون من طرد وابادة في تلك المناطق التي كانوا يشكلون أكثرية في كثير من مناطقها فاذ بهم يتحولون الى أقلية هامشية بسب الطرد والابادة. ويركز الكاتب على أن ذلك كان سياسة منهجية وليس كنتاج ثانوي للحروب التي اندلعت. لقد كانت سياسة تطهير عرقي للمسلمين مصممة بدقة وعناية.

أعادني هذا الكتاب الى هوامش كنت قد كتبتها على متن قصة للكاتب الروسي ليف تولستوي وعنوانها «أسير القفقاس»

يومها دهشت وأنا أقرأ تلك القصة أن تولستوي، هذا الكاتب الانساني الذي اتخذ موقفاً مناوئاً لحرب القفقاس، حتى أنه كثيراً ما وصف الجرائم التي قام الروس بها هناك. ينقل عنه الكاتب جستن مكارثي وصفه لهجوم الروس على القرى القوقازية.

فيقول : «جرت العادة أن تهاجم القرى في أثناء الليل، عندما يسب المباغتة، لا يتسنى الوقت للنساء والأطفال الفرار، وكان الرعب الذي تلا تحت جنح الظلام حين اقتحم الروس البيوت بمجموعات مؤلفة من اثنين وثلاثة شديداً الى حد لم يجرؤ أي معلق رسمي على وصفه» ص58

أدهشني أن هذا الكاتب الكبير وقع ضحية للأفكار لسائدة في عصره فاذ به يرسم في تلك القصة صورة نمطية للآخر تخرجه عن اطار الحياة الانسانية وتجعله أقرب للحيوانات، ويتغنى عبر شخصية البطل بالدور التمديني للروس بين القوقازيين الهمج المتخلفين. لقد رسم صورة نمطية للآخر تجرده من كل انسانيته فأظهره شراً مطلقاً يجب استعباده أو طرده او ابادته. و هو أمر طالما اتبعه الغزاة الأنغلو ساكسون في وصفهم الهنود الحمر في أمريكا تمهيدا لطردهم وابادتهم.

تدور هذه القصة في القفقاس وقد أطلق عليها الكاتب اسماً أساسياً «أسير القفقاس» وعنواناً فرعياً «قصة حقيقية». تدور هذه القصة حول ضابط روسي اسمه جيلين له أم عجوز تتمنى أن تزوجه قبل أن تموت وترسل له رسالة:

«وجدت لك عروساً عاقلة، حلوة، ولها ضيعة أيضاً. وقد تعجبك، فتتزوج، وتبقى عندنا نهائياً» يقرر جيلين بعد هذه الرسالة أن يطلب اجازة ليذهب لأمه.

يعيش الروس في القفقاس وسط بيئة معادية في قلاع وحصون ولا يتحركون الا بقوافل. يقول الكاتب:

«كانت الحرب ناشبة في القفقاس آنذاك، لا حركة على الطرق لا في الليل ولا في النهار. والروسي ما يكاد يبتعد عن القلعة راكباً أو ماشياً حتى يقتله التتار، أو يأخذوه الى الجبال. و قد جرت العادة أن يخرج جنود مرافقون من قلعة الى قلعة مرتين في الأسبوع. يسير الجنود في المقدمة وفي الخلف، والناس في الوسط».

كمين للتتار

يقع جيلين في كمين للتتار بعد أن يبتعد عن القافلة، يفكر جيلين في نفسه:

«أنا أعرفكم أيها الشياطين اذا أمسكتم أحدا حياً، حبستموه في حفرة، وهرأتم جلده بالسوط، فلن أستسلم حيا» ومن هذا المقطع يبدأ اللا وعي الباطن المشتق من ايديولوجيا العصر الغربي الابادي. يبدأ هذا اللاوعي برسم صورة نمطية للعدو تدمجه بالشيطان. فالتتريان اللذان ينقضا على جيلين «منتنين» ويتكرر وصف منتن مرة أخرى بعد قليل.

وفي الأسر يتعرف الأسير على الفتاة دينا ذات الثانية عشر ربيعاً. و هنا نرى النظرة للآخر التي لا تنظر اليه كبشر وانما كشيء خارج حدود الحياة البشرية وهذا أمر ضروري من أجل قتله أو طرده وتصفيته. فـ«الفتاة تقفز كالماعز البرية» والجامع «كنيستهم ذات البرج».

يطلب «التتار» منه أن يرسل لأهله ليدفعوا ثلاثة آلاف روبل كفدية له. لكنه يرفض ويقرر أن يهاجمهم. وهنا يصور الكاتب الضابط الروسي شجاعاً حتى وهو في الأسر، فيقول جيلين لنفسه:

«آه الجبن معهم يجعل الأمر أسوأ» ويثب على قدميه، ويقول:

«ولكن قل لهذا الكلب ـ لن أدفع فلساً واحداً اذا كانا يريدان أن يرهباني، بل ولن أكتب لأهلي، أنا لم أخف، ولن أخاف منكم يا كلاب».

هنا يتراجع التتار ويرضون بألف روبل فدية.

وفي هذا المقطع نلاحظ انقلاب الأدوار فالتتاري الذي يدافع عن أرضه يصور جشعاً لا يهمه سوى المال. أما الروسي المحتل المعتدي فهو الشجاع وكأنه صاحب قضية نبيلة. وهو أمر شبيه بما اتبعته هوليوود أثناء تصويرها الهندي الأحمر، حيث صورته كمتوحش يسلخ جلد فروة رأس الأبيض ويعتدي على قطارات البيض المسالمين وعلى قوافلهم في حين أن العكس هو الصحيح !!يقول منير العكش محللاً آلية التفكير الابادية هذه:

«ان اغتصاب أراضي الهنود وابادتهم فضيلة انسانية. أما مقاومة ذلك الاغتصاب وتلك الابادة فوحشية وشر وجريمة عقابها الموت». ومع تقدم الزمن صارت شيطانية الهندي ووحشيته بديهية لا تحتاج الى دليل مثلما أن انكليزية الله وتفوق شعبه من البديهيات التي لا تحتاج الى دليل».

يصر جيلين أنه لن يدفع الا خمسمئة روبل فدية فيوافق التتار أخيرا على ذلك.

خلال القصة يرسم تولستوي صورة للضابط الروسي مليئة بالثقة فقد رأينا كيف شتمهم وهو واثق من أنه سيهرب. ويبدأ بتمضية وقته بصنع أشياء حضرية تبهر التتار المتخلفين، حسب الرواية السائدة في ذلك الوقت، فيصنع دمية فتركض ابنة مالكه، دينا، وتخطفها وتهرب بها. ودينا هي الطفلة التي لم تشوه بعد بثقافة أهلها المتوحشين. فقط لأنها طفلة:

«ويتطلع في اليوم التالي، فيرى دينا تخرج على عتبة بيتها عند الفجر، تحمل الدمية، وقد زينتها بالخرق الحمراء، وتهددها كالطفلة وتترنم لها بلغتهم. خرجت أمها العجوز، وشرعت تقرعها، واختطفت الدمية وحطمتها، وأرسلت دينا في شغل».

لكن الروسي «المتحضر» لا ييأس فيحاول مرة أخرى نشر الحضارة بين هؤلاء المتوحشين لذلك يصنع دمية أخرى ويعطيها لدينا. فتبدأ الصغيرة بالتعاطف معه، فتحضر له الحليب مرة بعد مرة وتكتشف أنه لطيف ثم جلبت له لحماً. ويبدأ الروسي باظهار مهاراته الحضارية فيبهرهم بالدمى التي يصنعها ويصلح لهم الساعات والمسدسات ويصبح محور حياة القرية والجوار، وعندما مرض تتري دعوه ليشفيه:

«مرض تتري ذات مرة. وجاءوا الى جيلين يدعونه لعلاجه. وجيلين لا يعرف كيف يعالج المرضى. ويفكر قائلا لنفسه أظنه سيشفى لحاله» عاد الى السقيفة. تناول شيئاً من الماء، والرمل، وخلطهما. وقال بعض الكلمات على الماء بحضور التتار، وأعطاه ليشربه المريض. وشفي المريض لحسن حظه. والفضول العلمي وحب الاكتشاف لا ينقطع عند جيلين حتى في أسره. وقد عرضه ذلك للقتل.

«لم أرد أن أمسه بسوء. أردت أن أرى كيف يعيش».

ثم يهرب جيلين فيلقي التتار القبض عليه ويضعونه في حفرة. لكنه يصنع من الطين دمية لدينا. التي تحضر بعد حين لتخبره أن أهلها سيقتلونه لأن الروس قريبون. ثم تساعده على الخروج من الحفرة عبر جلب عصا له ليستعملها في الخروج. وبعد ذلك يطلب من دينا أن تعيدها الى مكانها كي لا يضربوها، فحتى في أصعب الظروف لا ينسى انسانيته. وتساعده دينا بفك القيد. وقبل أن يغادرها لا ينسى أن يذكرها بفضله عليها «يا عاقلة من يصنع لك الدمى بعدي ـ ومسد على رأسها».

«وتبكي دينا، حاجبة وجهها بيديها، وركضت على الجبل، قافزة كالعنزة».

في هذه القصة توجد كل العناصر الأساسية، التي استند لها الابادايون الغربيون أثناء تصويرهم شعوب آسيا وافريقيا، خاصة في أمريكا. فهم متوحشون يقتربون من الحيوانات في سلوكهم وتصرفاتهم، واذا وجد طيب بينهم فهو من الأطفال الذين لم يتلوثوا بثقافة أهلهم، أو ممن يساعدون المحتل على الخروج من ورطته عبر خيانة أهلهم. وفي هذه القصة يتجسد بشخصية دينا فهي طفلة وتساعد الغازي. لتكون طيباً بالنسبة للغزاة يجب أن تكون طفلاً أو خائناً !!!

ليس الهدف من الاشارة الى هذه القصة هو محاكمة كاتب عظيم كتولستوي. بل ان الهدف هو الاشارة الى أي مدى يمكن أن ينغمس المرء، حتى دون أن يشعر، في علاقات عصره وان كان يرفضها في وعيه. وهذا أمر دعا البعض الى الجزم بأن الحرية وهم، لأن الانسان منذ ولادته موضوع بين خيارات محدودة وان توهم أنه حر الاختيار. لكنه بطريقة أو بأخرى يستمد خياراته وأفكاره ومفاهيمه من تلك السائدة في عصره، فاما أن يتماثل معها، أو يرفضها. وفي الحالتين تكون مفاهيم عصره قد صاغته وحددت طريقة تفكيره وربما تسربت الى عقله الباطن دون أن يشعر ونفس الأمر ينطبق على الشعوب. لقد تلوثت كل الأمم والشعوب، بدرجات متفاوتة، بروح العصر الغربي الذي انطلق قبل خمسمئة عام ويسميه المفكر تشومسكي «رايخ الخمسمئة عام» وهو ينهض على الابادة والاستعباد فيلخص العلاقات بين البشر والشعوب بعلاقة «سيد ـ عبد». واضعاً الشعوب بين خيارين، اما أن تكون قاتلة أو تصير مقتولة، اما ظالمة أو مظلومة.

ان المسؤول الأول عن الجرائم التي جرت خلال القرون الخمسة الماضية في كل أنحاء العالم، وبغض النظر عن اليد التي ارتكبتها، هي العقلية الغربية الابادية التي حولت الحرب الى طريقة حياة، وحولت الشعوب الى قاتلة أو مقتولة، ولم تترك فرصة كي يحل السلام على سطح الأرض. ان فهم هذه النقطة يجعل الشعوب والأفراد أكثر قدرة على التعامل مع مآسيها الخاصة، ويحول التجارب المريرة التي تعرضت لها على يد الآخرين الى رصيد ايجابي يخدم الانسانية اذا ما صبت هذه الشعوب حقدها على منظري هذا العصر وبُناته بدل أن تفرغها في أحقاد ثانوية ضد من تتوهم أنهم سبب مآساتها، والذين لا يزيدون عن كونهم أدوات تنفيذ، أو روبوتاً ينفذ الأوامر التي تمت برمجته بها. وبهذه الطريقة تصبح دماء وعذابات الذين قتلوا في العصر الامبريالي الراهن، لا سيما في القرنين الماضيين، ذات قيمة انسانية عظيمة ويجري استثمارها لصالح البشرية جمعاء. لكن للأسف ما يجري حتى الآن هو تحول هذه العذابات التي ارتكبت بتأثير عقيدة العصر الابادي الى عامل ترسيخ عداوات وروح انتقام بين الشعوب بما يخدم مصلحة سادة العصر الابادي أنفسهم. فكثيراً ما رأينا في هذا العصر كيف يتمرد العبيد على سادتهم وبدل أن يدفعوا الحياة الانسانية الى الأمام عبر بناء عالم خال من العبودية فاذ بهم يتحولون الى تجار عبيد، وهو أسوأ ما يمكن أن يطرأ على المرء من تبدل، أي أن يتحول المرء من عبد الى تاجر عبيد. كما شاهدنا شعوباً مقموعة مظلومة لكن عند أول فرصة سنحت لها تقمصت سلوك ساداتها وتحولت الى ظالمة قامعة.

لقد تلوثت كل الشعوب والأمم، خاصة في القرنين الأخيرين، بالعقلية الغربية الابادية. فكل شعب من الشعوب حاول أن يبني دولة على الطريقة الغربية، أي دولة قومية تستعبد الآخرين ويكون لها مجالاً حيوياً تنهبه. بعض الأمم فشلت وبعضها نجح. من فشل صب جام غضبه على من نجح واتخذ سحنة المظلوم وبدأ يبكي عذاباته. لكن لو أتاح التاريخ له أن ينتصر لفعل مثل ما فعل المنتصرون الذين يلومهم.

ان المذنب في كل ذلك هو الأسس التي قام عليها النظام العالمي. وان من يحتاج الى الهزيمة هي الفكرة، فكرة الابادة والطرد والاستعباد، فكرة النظر للآخر على أنه شيطان، على أنه الشر المطلق، مما يفتح الطريق لاحقاً أمام ابادته أو استعباده. وان النضال يكون مجدياً ويكون له قيمة انسانية كبرى حينما نسعى لبناء عالم يجد الجميع مكاناً لهم فيه بغض النظر عن انتمائهم الديني أو العرقي أو اللغوي أو الجهوي. لا يعني ذلك الغاء الفروقات الدينية واللغوية والعرقية وانما أن تتحول الى عوامل اغناء للحياة البشرية بدل أن تكون صواعق لتفجير الصراعات، كما هي في عالم اليوم.

الاستيطان في امريكا والاستيطان في القفقاس

اذا وضعنا النقاط السابقة أمامنا ونحن ندرس التجربة الروسية الابادية في القفقاس يمكننا فهم ما جرى بشكل أفضل يقول مؤلف كتاب «الطرد والابادة» واصفا السياسة الروسية في القفقاس :

«حرروا المناطق التي أخضعوها من المسلمين واستبدلوا المسيحين بهم. لم تكن تلك السياسة استثنائية للروس، ففي الوقت الذي كان الروس يقومون فيه بأفعالهم ضد المسلمين على سبل المثال، كان المستوطنون الأوربيون في أمريكا الشمالية يفرضون سياسة مشابهة على الأمريكيين الأصليين».

فالدب الروسي الذي استيقظ متأخراً تعلم الدرس الغربي سريعاً وبدأ يحاول بناء دولة قومية على الطراز الغربي، والخطوة الأولى في هذا الطريق هي الاستحواذ على مستعمرات. واكتملت القضية في عهد بطرس الأكبر الذي تقول كتب التاريخ انه كان شخصاً ماجناً سكيراً، فقد قرب منه الأجانب واللوثريين في بلد أرثوذكسي محافظ. ويقال انه كان يحتقر كل ما هو روسي وكان معجباً بالغرب وبكل تفاصيل حياته. لقد كان سلفاً نموذجياً لقادة العالم الثالث في القرن العشرين عبر انبهارهم بالغرب وتبنيهم حضارة الغرب بكل تفاصيلها واحتقارهم لكل ما هو موروث وأصيل في أوطانهم، والنموذج الأشهر لهؤلاء هو أتاتورك والأتاتوركية. ويصل التشابه الى حده الأقصى بين هذين الشخصين فقد تبنى أتاتورك مرسوماً أجبر بموجبه الأتراك على ارتداء ملابس غربية، وكذلك فعل بطرس الأكبر. يشير مرسوم الثياب الذي فرضه بطرس الأكبر الى ما يجب أن يرتديه المواطنون:

«بدلات سكسونية وفرنسية وتحتها قمصان وسراويل، والجزمات والأحذية والقبعات ألمانية الطراز». «ان هذا الافتتان بالغرب ومحاولة تقليده في كل شيء يعني أول ما يعني على الصعيد السياسي الرغبة بالتحول الى دولة نهب، أي دولة لها مستعمرات. هذا هو جوهر التحديث الذي قام به بطرس الأكبر».

كان الوضع السياسي المعقد داخل أوربا يمنع الدولة الروسية من التوسع هناك وامتلاك مستعمرات، لذلك اندفعت روسيا جنوباً حيث الدولة العثمانية والعالم العربي ـ الاسلامي، وكان القوقاز مسرح هذه الاندفاعة الروسية. لقد كان نجاح حلم بطرس الأكبر الاستعماري مرتبطاً بشكل وثيق بالوصول الى منافذ بحرية تحقق الصلة بأوربا. وكانت الخيارات أمامه هي التالية: بحر الشمال، وبحر البلطيق والبحر الأسود. أما بحر قزوين فلم يدخل في الحسابات لأنه رغم سعته بحيرة داخلية مغلقة. وجد بطرس أن بحر الشمال بعيد وغير مناسب للتجارة وللعلاقات الثقافية مع الغرب. وفي تسعينات القرن السابع عشر قرر تأجيل موضوع بحر البلطيق بسبب ظروف أوربا السياسية، فتفرغ للبحر الأسود , الذي كان بحيرة عثمانية بالكامل من سيباستول في الشمال الى مضيق البوسفور. وهنا كان الدخول الروسي الى القوقاز.

القوقاز

يمتد أقليم القوقاز من البحر الأسود الى بحر قزوين وكان يشكل الحد الفاصل بين الدولة العثمانية وقياصرة روسية. ومنذ اللحظة الأولى كان لدى الروس خطة استعمارية متكاملة للسيطرة على القوقاز الذي سيفتح لهم أبواب البحر الأسود، فقد كانوا ينشئون القلاع والطرق والمباني العسكرية والتحصينات تمهيداً للدخول الى عمق القفقاس. وفي القرن التاسع عشر لخص الجنرال ديليالينوف خطة استعمار القفقاس بالتالي:

1ـ اقامة تحصينات في المناطق المهمة طبوغرافياً .

2ـ أخذ الأراضي من الجبليين بسرعة واسكان القوقاز في محطات على هذه الأراضي.

3ـ تخريب الحقول ومصادرة الأراضي .

أي أن الخطة هي مزيج من سياسة الاستيطان والأرض المحروقة والتهجير. كتبت صحيفة القفقاس الرسمية:

«كان جنرالات الروس يقومون بحملات في الجبال ويطلقون النار على كل شيء ويقتلون السكان بالحراب والنار ويأخذون كل شيء ويسرقون الماشية، و كانوا يعاقبون الناس بتدمير قرى بأكملها».

و يمكننا أن نلخص بعض المحطات الأساسية في تاريخ القفقاس. فقد استولى بطرس الأكبر على دربند وباكو في عامي 1722ـ1723 لكن نادر شاه استرجعهما. وعاد الروس ثانية الى المنطقة عام 1812 والى جورجيا عام 1873، حيث أصبحت دافعة للجزية. و في عام 1836 اندلعت ثورة شامل، الذي هزم 1859. وفي عام 1864 كانت السيطرة الروسية على القفقاس شبه تامة.

لقد طبق الروس سياسة التهجير والنزوح القسري عبر تدمير البيوت والحقول فلم يتركوا خياراً سوى الموت جوعاً أو الفرار. لكن الحرب لا تدور على الأرض فقط وانما في العقول والكلمات. فكي يسهل على الجنود قتل العدو يجب أن ترسم للعدو صورة تخرجه خارج الحياة الانسانية الراقية المتحضرة. فطريقة التفكير الابادية التي رسخها الغربيون في العالم المعاصر وتلوثت بها الشعوب، كما ذكرنا، تقول ان كل طريقة حياة أو تفكير مختلفة عن طريقة تفكيرنا هي همجية وغير متحضرة، فمن واجبنا أن نحضّر الأغيار فاذا لم يقبلوا التحضر فلا مانع من طردهم أو ابادتهم. و خلال ذلك تنعكس المفاهيم فيصبح دفاع الآخرين عن أراضيهم وممتلكاتهم عدوانا على حضارتنا.

وقد رأينا ذلك واضحاً في القصة السابقة، فالطفلة تقفز كالماعز البري، والتتار متخلفون يحاول الأسير أن يعلمهم الحضارة لكنهم يقاومون وهم قتلة جشعون لا يهمهم سوى الحصول على المال من والدة الأسير الفقيرة.

عن تسامح الاتراك

في الختام ملاحظة أخيرة هناك من يقول ان هذه الصراعات التي تنتج عنها الابادة ممتدة عبر التاريخ البشري وهي موجودة على طول التاريخ وهذا أمر غير صحيح على الاطلاق، فقبل صعود الغربيين على مسرح التاريخ كانت هناك حروب وصراعات لكن لم تجر ابادات، كانت الحروب، كما يقول تشومسكي، أشبه بالرياضة، أما مع الغربيين فقد تحولت الى طريقة حياة. كان السلم هو القاعدة والحرب هي الاستثناء. أما مع الغربيين فقد صارت الحرب هي القاعدة والسلم هو الاستثناء. ويدرك الكاتب جستن مكارتي الفرق الجوهري بين القيم التي كانت تحكم العالم قبل صعود الغربيين وبعد ذلك فيقول مقارناً:

«كانت معاناة تلك المجتمعات، من سخرية القدر، اذ لو كان الأتراك في أيام قوتهم قوميين من النوع اليوناني، لكان المسيحيون هم الذين طردوا تاركين وراءهم أراضي كانت تركية مسلمة بكل معنى الكلمة، بدلا من ذلك، عانى العثمانيون وبقي المسيحيون.

كثيراً ما كانوا يحصلون على معاملة حسنة وفي أحيان كثيرة على نحو رديء، لكنهم سمحوا لهم بأن يستمروا بالبقاء وأن يحافظوا على لغاتهم وعلى تقاليدهم ودياناتهم، كانوا على حق حين فعلوا ذلك. لكن لو أن أتراك القرن الخامس عشر لم يكونوا متسامحين لبقي أتراك القرن التاسع عشر على قيد الحياة في بيوتهم».

---

* كاتب وباحث عراقي.

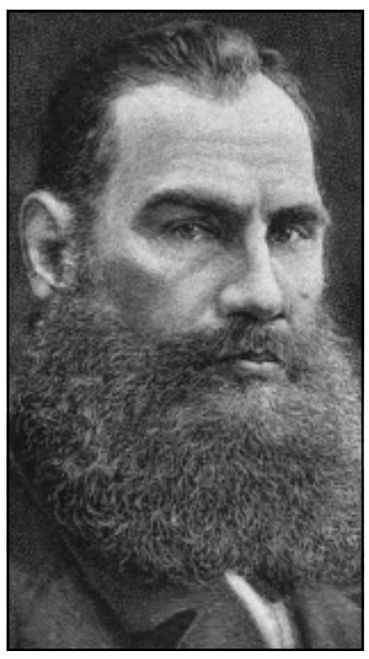

تولستوي

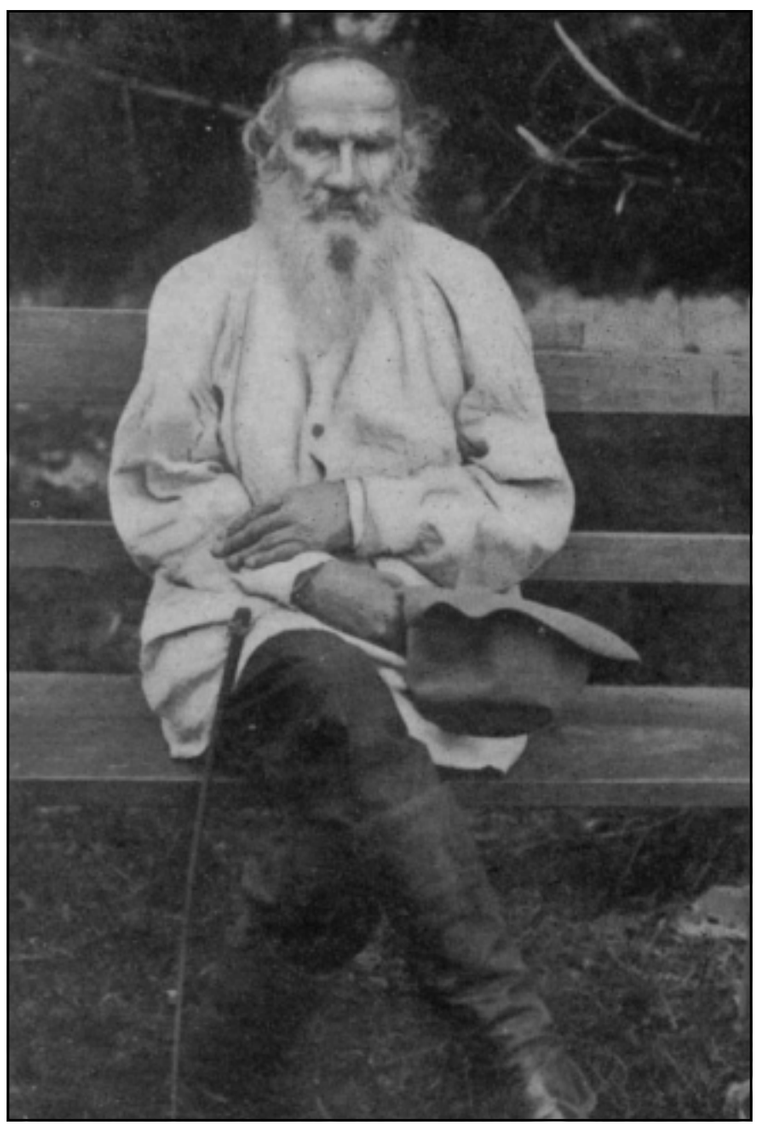

ليس الهدف من الاشارة الى هذه القصة هو محاكمة كاتب عظيم كتولستوي ولكن الاشارة الى أي مدى يمكن أن ينغمس المرء في علاقات عصره وان كان يرفضها في وعيه... مما دعا البعض الى الجزم بأن الحرية وهم.. لأن الانسان منذ ولادته قد وضع بين خيارات محدودة وان توهم أنه حر الاختيار....